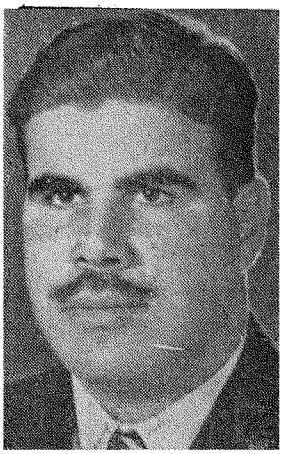

بين الأدب والفلسفة

بقلم الدكتور عبد الله عبد الدائم

قد لايكون في طوق الصفحات ، ان تلم بجانب من تلك الصلة المترعة التي تقوم بين مايثوي في الوجود من معان هي قوام الفلسفة ، وبين اداة التعبير عن هذه المعاني، نعني اللفظ .

ولا ادل على غنى هذه الصلة وتنوع الوانها وجوانبها مما نجده من لحمة تكاد لاتنفصم ، بين هاتين الحقيقتين الساجيتين في جوهر الحياة ، الفكرة والكلمة . لقد كانت الكلمة في البدء ، لان الوجود لايكون وجودا مالم يجله التعبير . وكانت الفكرة في البدء لان كل وجود وجود محمل بمعنى ودلالة ، حتى ليكاد يهم بالتعبير ويوميء بالكلمة . ان الشجرة والقمر والانسان تحمل فلسفة الكون في ثناياها ، ويحل لغز الحياة في طياتها ، غير ان تلك الفلسفة وذلك اللغز يخلقان دوما وأبدا خلقا جديدا ، عندما يغزوهما اللفظ ويستنطقهما الحديث ، ان مافيهما من اسرار الوجود ، بل مافي الوجود كله من اسرار ، متجدد ابدا ، يتفتق تفتق عيون النور المخضلة بالندى ، عندما يلامسه سحر التعبير، وينسكب فوقه لؤلؤ اللفظ . ان الطبيعة فيلسوفة على شاكلتها ، وان المجتمع بنظمه وعلائقه ، فيلسوف على شاكلته . والحياة في نغمها المشعشع ، بين الطبيعة والانسان ، فيلسوفة الفلاسفة ، غير ان فلسفتها هي الحياة لاتبوح بها دفعة ، ولا تنثها طائعة ميسرة . انها كالافق ، تدنو منه ولا يدنو ، ويطمعك ولا يبلغك . والتعبير في سباق دائم مع هذا الافق ، يلمح فيه الرؤى ويطوي لها الايام والسنين، والافق دوما وراء الرؤى ، والرؤى ابدا فوق الافق .

هذا اللحاق السرمدي بين سر الحياة وبين التعبير عنه ، هو في نظرنا جوهر الصلة بين الفلسفة والادب ، انها هنالك ، في النبع ، في مآقي الوجود ، في الحياة التي حملت المعنى ، وفي الكلمة التي قالت للمعنى كن ، في الفكرة السادرة تتمطى وتتثنى في اعماق الكون ، وفي اللفظة تهب لترويها وتمنحها الدفء وتفتق أكمامها في جنح من الليل . انها هنالك دوما وابدا ، في المعنى الخصيب الفقير معا ، يحمل الرؤى غزيرة ولا يمرع الا اذا بله القول ، وفي القول القوي العاجز معا ، يضرب بالعصا السحرية فيفجر المعنى ويشقق السر ويهتك الحجب ، غير انه يظل معذ لك في صبوة اكبر الى سر جديد ، يطول به الطريق كلما اوغل فيه ويعجز عن معنى الكون كلما سرى اليه ، ويرتد صاغرا في كل مرة الى الفكرة الثاوية في الكون بعد ان خلقها في زعمه يستمد منها قدرة جديدة على الخلق . اجل هنالك ، في معنى الكون الصامت الجبار ، وفي كلمة الانسان القادرة ابدا العاجزة ابدا ، يكمن العناق الاصيل بين الفلسفة والادب .

لقد قال الكون كلمته ، قالها مليئة بالرؤى والاحلام ، عامرة بالافاق اللامتناهية ، مسجاة بالشفوف تشف عن آفاق لا محدودة ترى ولا ترى .

وجاءت كلمة الانسان ، تبحث عن الرؤى ، تصطاد اللؤلؤ ، واللؤلؤ في قاع تنزلق فيه القيعان . جاءت الكلمة لتكون عين الخلق الذي بها يرى ذاته ، غير ان الخلق يؤثر ابدا الا يتعرى ، ويروق له ان تتجدد اللعبة الى الابد :ينسدل منه ستار ليرتفع ستار ، ويغمز بجانب من أسراره في مثل طرفة العين ، ثم مايلبث حتى ينام على سر مكين .

والصائد الاكبر في هذا الصيد الجاحد الممطال ، هو الاديب . انه الانسان ذو الرؤى ، انه اولا وقبل كل شيء، حالم رأى رؤيا في أفق الكون ، وأدرك برقا من أثر اللغز العريض، فطوف لحاقا بالافق وطفق قبضا على البرق . لقد لمح في سراب الحياة جرعة وهب لباوغها حياته . انه يهم ويعزم ، فقد اوشك ان يطأ الارض المقدسة ، وعتم يمسك بالنور وينثر قطراته وسط الديجور .

ولا يعنينا ان يكون هذا الاديب ناثرا او شاعرا ، خدين القصة او اليف المقالة ، انه في نظرنا الانسان الميتافيزيقي من الطراز الاول ، واذا صح تعريف بعض لفلاسفة للانسان بانه حيوان ميتافيزيقي ، فالاديب في الذروة من هذا التعريف . انه ابدا غارق في جوهر الوجود وماهية الكون ، سواء ادرك ذلك أولم يدرك . انه ابدا ذلك الساعي الى تعرية الوجود أملا في فهمه ، وطمعا في الامساك بسره، فالتعبير دوما كشف وتعرية ، وتعبير الاديب ومضة من النور رأى من خلالها طرفا من جسد الحياة ، فجرب ان يكشفه لنفسه ولغيره .

وقد يكفيه من الومضة ان يستلقي في ضيائها ويطعم من نورها سعيدا لايطمع من الرؤى بأكثر من الرؤى ، ولا يسائل عما وراء التهاويل ، واذ ذاك نلفيه شاعرا او ناثرا يشفق على المعاني التي تراءت له ان تخرج من اطارها الطبيعي الذي تبدت فيه اطار الضباب المنعش ،والاسرار القريبة البعيدة ،والاحاسيس اللامتعينة . وفي مثل هذه الحال نلفي الادب الايحائي ،الذي يجهد ان ينقل الرؤية نقلا أمينا ، بجلبابها المتشابك المعقد ، وبأحاسيسها المبهمة المختلطة ، وبأصواتها المبحوحة الحائرة .

وقد لايقنع الاديب بالتلميح من دون التصريح ، وقد لايقوى على الاستلقاء في احضان الرؤيا ، ويأبى الا ان يعمل

فيها عقله ، فاذا به يحاول جاهدا فك جنباتها وتشذيب هوامشها ، وتقضيب فروعها ، ليخرجها بعد ذلك كله في جلباب مفصل على قد الانسان ، يدركه عقله ، وتعيه تجربته وعند ذلك نلتقي بالادب الذي يفصح عن فلسفة واضحة ، ويتبنى وجهة نظر محددة .

ويأتي في منزلة ثالثة ، رجل لايقنعه تلميح الاديب المغطى بالضباب ، ولا ترضيه محاولة من اراد ان يجعل الرؤيا معقولة منقولة ، بل يطمح في ان يدرك الحقائق كاملة دون ان يطفيء ظماه جانب منها ، ويطمع وراء ذلك ان يمسك بسر الكون كله ويقبض على مفتاح الوجود . انه لايريد رؤيا ولا ينقل رؤيا ، وانما يود ان يمضي وراء عالم الرؤى الى عالم الحقائق ، ووراء الاشباح والظلال الى الاشياء في ذاتها ، ووراء الشعور والاحساس الخالصين الى الوعي المجرد العاقل . وعند ذلك نلفي الفيلسوف ، نلفيه جاهدا في البحث عن جوهر الاشياء ، لا لينقل هذا الجوهر احساسا وشعورا ، ولا ليبعثه نغما منسابا ولحنا دافقا ، ولكن ليحلله ويجزئه ويقبض على ماهيته .

ان محاولته أضخم دون شك من محاولة الاديب ، ولكنها تفقد في الاتساع والالوان ماتربحه في العمق والدقة . انها لاترقى الى أحاسيس الاديب العريضة الغنية ، التي تضم جانبا كاملا من الكون في رقراق من الشعور . غير انها معتزة مع ذلك بنفسها ، لاترى الحق في المعاناة وحدها ، وانما تراه في تحليل عناصر هذه المعاناة والنفاذ الى جوهرها ، انها تنكر ان يكون الفيلسوف ، كما وصفه بعضهم ، شاعرا أخطأ موهبته ، وترى على العكس ان الشاعر ميتافيزيقي لم يحاول وعي تجربته وكفاه منها انه فيها .

ومع ذلك ، فالمد والجزر قائمان بين هذه النماذج الثلاثة في فهم الكون ، فالاديب الملهم ، صاحب الوحي الغائم لا بد ان يكون في أخذ وعطاء مع الاديب الذي يحاول ان يحلل تجربته ضمن حدود الزاويه التي يرى منها الاشياء ، ومع الفيلسوف الذي يأبى الا ان يرقى الى أصول الامور ومبادئها الاولى . ومثله الاديب المحلل والفيلسوف الباحث . ان شيئا من كل واحد منهم لابد ان يغمر الاخر ، ولكن بمقدار ، وباختلاف نصيب كل واحد من هذه المقادير الثلاثة تتكون طوائف الادباء والفلاسفة . على ان الذي يجمع بينها جميعها ، هو انها برمتها ، جهد دائب يقوم به التعبير لجلاء معنى الحياة ، ويحاول فيه الانسان الميتافيزيقي أن يدرك سره وسر الكون معه .

***

أوعجب بعد هذا كله ان نرى الترافد قائما بين الادب والفلسفة ، في شتى العصور ؟ وهل نغلو اذا قلنا ان الادب كله ومعه مايدعى بالفلسفة « بمعنى المذاهب والنظريات الفلسفية » ، يسقيان من نبع واحد هو نبع الفلسفة البدئية القائمة في ثنايا الكون ، المومئة الى الكلمة ، المتعطشة الى التعبير ، العصية على كل تعبير مع ذلك ؟ او نجانب الحق ان قلنا ان كلا من الادب والفلسفة ليسا الا محاولتين ، من جانبين مختلفين ، لكشف الستار وهتك الحجاب ؟ ان الادب يدور ليلتقي بفلسفة الحياة ، وان الفلسفة المقعدة تلوب لتدرك فلسفة الحياة .

اما ان يكون وراء هذا كله تأثر مباشر بين المذاهب الادبية والمذاهب الفلسفية ، وتواصل وعطاء بين الادباء والفلاسفة على مر العصور ، فذلك نتيجة بدهية لكل ماقررناه ، ذلك ان معنى الحياة في تجدد ونماء ، وهذا التجدد ينعقد بفضل مايكشفه التعبير من مجالي الوجود واسراره ، سواء كان هذا التعبير نث اديب او بث فيلسوف . ان كل حادثة جديدة في جبين الحياة تضيف الى مافيها معنى جديدا ، وان كل تعبير جديد عما في الحياة يمنحها هامشا أكبر من المعنى . ومن هنا كان الاديب الذي يخط كلمته في معبد الوجود ، يضمخ الوجود بمعان يرتشفها ، وكثيرا مايتلقفها صائد جديد ، اديبا كان او فيلسوفا . ومن هنا ايضا كان الفيلسوف الذي يحج الى عالم الماهيات والجواهر ، يفتق في الكون مشكلات جديدة ويضع فيه مجاهيل مستحدثة ، ومحاولات حلول خجلة ، وما يلبث حتى يؤتي ذلك كله بعض ثمراته في صائد جديد من فيلسوف او اديب .

ولكن هل يعني هذا ان الحدود غير قائمة بين الاديب والفيلسوف ، بين الادب والفلسفة ؟ الجواب بنعم ولا . اما انها غير قائمة ، فلان التدرج بين الاديب والفيلسوف تدرج متتابع ، لا انقطاع فيه ، تلتقي فيه ان صح التعبير نهاية الادب ببداية الفلسفة . ففي كل اديب خط من اسلوب البحث الفلسفي ، بالمعنى العلمي لهذه الكلمة ، وفي كل فيلسوف حظ من أسلوب الاداء الادبي ، وحظوظ الادباء المختلفين من أنصبة الفلسفة متباينة متدرجة ، وحظوظ الفلاسفة المختلفين من أنصبة الاسلوب الادبي متباينة متدرجة ، ولا نكاد نقع على الاديب المحض او على الفيلسوف المحض الا في نهايتي السلم . وهما نهايتان خياليتان نظريتان في الواقع . وهكذا ننتقل انتقالا لاينقطع من الادب الى الفلسفة .

واما ان الحدود قائمة مع ذلك بين الادب والفلسفة فلاننا نستطيع في نهاية الامر ان نستخرج من الواقع الذي يتحد فيه الادب بالفلسفة اتحادا متفاوتا وعلى درجات ، جوهرا مقوما للادب واخر مقوما للفلسفة ، ومثل هذا الاستخراج استخراج نظري يجرد من الواقع الممتزج المتحد بعض عناصره ومقوماته ويفردها ويجعل منها نماذج .

فما هو النموذج الذي ننتهي اليه ان نحن جردنا الادب ؟ وما هو النموذج الذي ننتهي اليه ان نحن جردنا الفلسفة ؟

ان الادب ، اذا اخذناه في قوامه المجرد المصفى ، ونظرنا اليه كادب خالص ، قلنا عنه انه الاندماج في الحياة ، أو المشاكلة الوجدانيه لها Einfühlung بالمعنى الذي يفهمه أمثال « شيلر » من هذه الكلمة . وفي مثل هذا الاندماج يغدو المشاهد والمشاهد شيئا واحدا ، ولا يعدو المرء ان يصبح نغما من انغام الحياة وقصة ترويها الحياة . والاديب اذ ذاك تشخيص للحياة نفسها وتجسيد لها . انه اياها ، لايستطيع ان ينفصل عنها ليراها ، ولا تعدو ان تنطلق انغامها فيه . انه ينتقل الى عالم من البهجة ، لم يقصد اليه هو ، ولكنه انفتح له . ولا يصفه ولكنه يشف من خلاله .

ولا حاجة الى ان نقول ان مثل هذه الحال في الادب حال نموذجية ، وتجريد لما نقع عليه في الواقع ، اما مانقع عليه في الواقع فاقتراب من هذه الحال بمقادير متفاوتة ، ومن هنا كنا نقع على الشعراء الذين يكادون يمثلون هذا الاندماج مع روح الكون والحياة ، بحيث تتجلى الحياة فيهم وتنطق في تعابيرهم . كما نقع على الادباء الذين نكاد نلفي لديهم هذا الاتحاد الكبير بين الذات والكون . غير ان وراء أولئك وهؤلاء شعراء وكتابا لايحملون من هذا الاندماج الشعوري الا الذماء القليل .

اما الفلسفة ، اذا اخذناها ايضا في جوهرها المجرد المصفى ، فهي النقد الفكري . انها لاتستطيع الوقوف مكتوفة الايدي لتكون ترجمانا للطبيعة والحياة . بل تريد وراء ذلك

ن تتصدى للحياة فتملها بالتفكير المجرد وتعمل فيها نطق وسائر ادوات البحث لدى الانسان ، لتجلوها وتعرف نهها . وبدهي ههنا ايضا ان مانجده في الواقع ليس هذه صورة المجردة عن الفلسفة ، وانما هي فلسفات تقترب ليلا او كثيرا ن هذه الصورة .

واذا نحن تأملنا بعد هذا في هذين التعريفين لجوهر ل من الادب والفلسفة ، استبان لنا الفراق بينهما في لاصل رغم مابينهما من وشائج في عالم الواقع . وعند لك ندرك مايقرره كثير من النقاد حين يبينون التناقض بين لادب والفلسفة ، وحين يصرحون قائلين ان الفلسفة تقتل لشعر ، فالادب في ذروته وفي جوهره المجرد يعني ، على حد تعبير برغسون ، « تنويم القوى العاملة او المقاومة في شخصيتنا وقيادتنا الى حال استسلام نتصل فيها بالفكرة ونشارك في العاطفة » . انه ضرب من الحلم ، ولكنه حالم في قلب الوجود . اما الفلسفة فتعني في جوهرها ايضا يقاظ القوى النقدية وشحذها وتسليطها على الاشياء .

أرأيت الى ذلك القصاص الماهر ، حين يصف الانسان ونفسه ومصيره ؟ انه يتبدى لنا بحارا عائما على نهر الحياة، نريه الحياة فيقول ، ويغرف منها فيصف . أرأيت الى مثل دوستويفسكي ، كيف ينهل من النبع مباشرة ، فلا يصف مايجمعه عقله وما يصل اليه النقد المجزيء ، بل يرى ويقبض يقبض على دفقة من نبع الحياة تنساب بين يديه . ثم أرأيت بعد ذلك الى عالم النفس ، أو الفيلسوف ، كيف يمضي أحدهما في تحليل المشاعر والعواطف والانسانية ، تحليل من جزأ وبعد وعجم ، دون ان يتصل بالنبع توا ؟ الى مثل هذا يرجع تفوق الاديب على الفيلسوف في كثير من الاحيان وان تلك المقايسة بين التجربتين خاطئة . ومن خلال هذا نفهم تصريحات كتصريحات أمثال « فرويد » حين يقول عن دوستويفسكي انه الوحيد الذي علمه شيئا عن النفس الانسانية . ان الاديب ينقل قطعة حية من الحياة ، ينقل المادة الخام بكل مافيها ، بكل غناها وفقرها ، بكل وضوحها وغموضها ، ثم يأتي الفيلسوف او العالم فيحلل القطعة ويدخلها في مخبره ، ويعرضها على محك النقد والتجريح، فيدرك منها أشياء جديدة لم تتضح للاديب الا همسا ، وتفوته أشياء اخرى أدركها الاديب بنظرته الشاملة ومشاركته المباشرة .

ومن خلال هذين التعريفين لجوهر الادب والفلسفة، ندرك ايضا معنى كثير من المناقشات التي تثور حول بعض الادباء والشعراء . ان المنتصرين لمثل أبي تمام ينتصرون في الواقع للفلسفة التي تداخل جوهر الشعر فتحيله شيئا جديدا ، وان المنتصرين لمثل البحتري ينتصرون للاقتراب من جوهر الشعر والادب ، ولهذا يقول صاحب البحتري في الموازنة متحدثا عن أبي تمام : « فان شئت دعوناك حكيما او سميناك فيلسوفا ولكن لانسميك شاعرا » . ولهذا ايضا سمعنا تلك القولة الشهيرة : « أبو تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري » فدبيب الوجود وقشعريرته هما ماينقله الادب في جوهره ، وحكمة الوجود وقوامه هو ماتحاول الفلسفة ان تنقله ، أفلم يعبر البحتري عن مثل هذا حين قال :

كلفتمونا حدود منطقكم   في الشعر يغني عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج (م) بالمنطق ما أصله وما سببه
والشعر لمح تكفي اشارته   وليس بالهذر طولت خطبه

وبعد قد يوهم مانقول اننا نجعل الشعر هو النموذج الامثل في الادب ، ونحيل جوهر الادب كله الى جوهر الشعر ، موحدين على هذا النحو بين الشعر والنثر . والذي قصدنا اليه غير ذلك : فجوهر الادب على نحو ماعرفناه ، في صميم كل أثر أدبي شعرا كان او نثرا ، وهو يصدق على الشاعر كما يصدق على الروائي وعلى كاتب المقال ، وليس عندنا فارق ، عندما ننظر الى الجوهر المصفى كما قلنا ، بين الوان الادب المختلفة ، ولسنا نذهب مذاهب كثير من النقاد الذين ارادوا ان يقيموا حدودا فاصلة بين النثر والشعر ، ناظرين الى الشعر احيانا على انه نقيض النثر . فالتجربة الادبية في اعماقها واحدة : انها تعني هذا الاندماج مع نغم الحياة اندماجا يجعلنا نسير في موكبها وننقل رؤاها . اما ان نقع على شعر يقترب من الحكمة والفلسفة ، وان نقع على نثر مبرد يقترب من الكلام العادي ، فذلك نتيجة طبيعية لما قلناه من ان الادب الصافي جوهر مجرد يقترب منه الادباء او يبتعدون ، ويقترب منه الاديب الواحد او يبتعد عنه في اطوار مختلفة من حياته .

سوى ان الصحيح دوما ان معيار الادب الحق هو هذا الاقتراب من جوهر الادب ، نعني الاندماج مع الحياة ، والرؤية الحقة ، رؤية السيل الدافق في عنفوانه واختلاطه. اما ماسوى ذلك فصناعة ودربة او بهلوانية لفظية ، او اشعال حرائق في هشيم اللغة ، على حد تعبير سارتر .

***

وبعد ، لم نحاول في هذه الكلمة العابرة أن ننبش التاريخ ، متحدثين عبر أبعاده عما كان في الآثار الادبية من منازع واتجاهات فلسفية ، وما كان في الآثار الفلسفية من شطحات ولمعات أدبية . فمثل هذا المطلب مركب صعب ، يجرنا الى دراسة تحليلية لا يتسع لها المجال . ولهذا آثرنا وراء ذلك أن نبحث في جوهر الصلة بين الادب والفلسفة ، فوجدناها قائمة وشيجة في النبع المشترك الذي منه يستقيان ، نعني نبع الحياة ومعانيها ، وما يحاوله كل منهما من جلاء لتلك المعاني واكتشاف لذلك النبع . فكلا الادب والفلسفة محاولة للكشف عن معاني الحياة ، بكل ما فيها : سرها وطبيعتها وانسانها ومجتمعها . انهما كليهما تجربة تحاول أن تستنطق الفلسفة الثاوية في صميم الوجود .

حتى اذا أردنا أن نرى الوشائج بين الاسلوب الذي يلجأ اليه الادب من أجل جلاء تلك الفلسفة والاسلوب الذي تلجأ اليه الفلسفة في سبيل الغاية نفسها رأينا الاسلوب الادبي أسلوبا مباشرا يحاول أن يعبر عن تجربة قوامها الاتصال الوجداني الحي بمعاني الحياة، في حين أن الاسلوب الفلسفي أسلوب غير مباشر ، يحاول أن يصل الى كنه الحياة عن طريق الامعان في نقدها وتحليلها . فالاديب يعبر عن معاناة شعورية مباشرة ينتقل عن طريقها توا الى مجال من مجالات الحياة ، فينغمس فيه ويعب من قلبه ، ويغدو واياه ناطقا بلسانه ، متحدثا عن فورته في كامل غناها . . أما الفيلسوف فيعبر عن تأمل لتجربة الانسان مع الكون ، قوامه نقد هذه التجربة وتحليلها وتسليط المنطق والعقل عليها . غير أن مثل هذا الوصف للاديب وصف نموذجي ، لا يعبر عما نجده في الواقع ، وانما هو نهاية مثالية يقترب منها الادب . ومثله وصف الفيلسوف، فهو أيضا وصف نموذجي لا يعبر الا عن نهاية تجريدية . والذي نجده في الواقع بين هذا وذاك ، صور مختلطة تقترب من صورة الاديب المثالية أو تبتعد عنها ، وتدنو من صورة الفيلسوف النموذجية او تنأى ، ويتحد فيها في

— التتمة على الصفحة ٩٧ —

بين الادب والفلسفة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤ ـ

معظم الحالات جوهر الاديب بجوهر الفيلسوف اتحادا يختلف من انسان الى انسان . ومن هنا كنا نرى فلسفة تعتمد على التجربه الادبيه الى حد بعيد ، كما نرى أدبا تمازجه التجربه الفلسفيه بمقدار ضخم .

وهكذا نعود من جديد لنرى الوشائج قوية بين الادب والفلسفه في أسلوب البحث الذي يلجأ اليه كل منهما ، كما وجدناها قويه بينهما في الغاية التي يرجوانها ، نعني جلاء الفلسفه التاويه في موكب الحياة .

وعن طريق مثل هذا المنهج في البحث ، نجتنب كثيرا من الصعوبات التي تقوم في وجه الباحث عن هوية كل من الادب والفلسفة . ذلك اننا وجدنا الهويتين ممتزجتين في الواقع امتزاجا يختلف دون شك من شخص الى اخر . ولا سبيل عندنا بالتالي الى وضع حدود فاصله بين الطرفين الا في مجال البحث عن الجوهر النهائي المقوم لكل منها . أما في واقع الحياة ، فنحن أمام اناس ثوى فيهم جوهر الاسلوب الادبي الى جانب جوهر الاسلوب الفلسفي ، سوى أن نسبه الواحد الى الآخر هي التي تختلف من انسان الى انسان ، وهي التي تجنح ببعض الكتاب شطر الادب وتجنح ببعضهم الآخر شطر الفلسفة . وليس هنالك تضاد بين هذين الاسلوبين في التعبير عن فلسفه الحياة ، أسلوب الاديب وأسلوب الفيلسوف ، الا عندما ننظر اليهما في نهايتهما المجردة كما قلنا .

فالاديب من حيث الجوهر ، يبحث في معاني الحياة وهي في حال السلوك والعمل . انه ينقلها بأمانة وبراعة ، حين ينتقل اليها ويتعاطف معها . والفيلسوف ، من حيث الجوهر أيضا يبحث في معاني الحياة محللا عناصرها مستخرجا مبادئها . ولزام على الاول ، في واقع الامر ، أن يضع في وصفه الحياة وصفا حيا جانبا كبيرا من التحليل وحظا من استخراج المباديء . وحق على الثاني ، في الواقع أيضا ، أن يتوسل الى تحليل العناصر واستخراج المباديء بالاتصال بالحياة في جريانها وانطلاقها الحي . وهكذا يداخل أسلوب البحث الادبي حظ من أسلوب البحث الفلسفي كما يداخل أسلوب البحث الفلسفي حظ من أسلوب البحث الادبي ويتوسل أحدهما بالآخر .

***

ولا ادل على هذه العلاقة العميقة بين الادب والفلسفة من قيام اتجاهات في الشعر والنثر تحاول أن تصدر عن أساس ميتافيزيقي . ففي الشعر مثلا نقع على ذلك الضرب من القريض الذي يسمونه باسم الشعر الخالص ، أو الشعر الميتافيزيقي ، والذي يحاول أن يكون صدى بعض المعاني الميتافيزيقية الاساسية التي يراها الشاعر خلال تجربته في الكون . هكذا نجد مثل وردزورت وشلي يتأثران بالتجربة الافلاطونية فيصفان لنا الطبيعة في سكونها وثباتها . وهكذا نجد شاعرا ميتافيزيقيا من الطراز الاول ، هو « هولدرلن » يحاول أن يتعمق مشكلة الزمن في شعره . ومثله يفعل الشاعر الرومانتيقي الالماني الشهير ، نوفالس Novalis (صاحب الشعر السحري) عندما ينقل الينا مشاعره نحو الزمن ، الزمن الجديد القديم أبدا في نظره ، وعندما ينقلنا الى لحظة هي الخلود في الوقت نفسه . ونظير هذا المعنى الميتافيزيقي نجده شائعا في شعر « بليك Blake حيث يحاول الشاعر أن يطلعنا على حضور الابدية في كل لحظة من لحظات حياتنا . أفلا نلفي ايضا عند الشاعرين الفرنسيين « مالارمي Mallarmé و « فاليري Valéry ضربا من التأمل في الوجود والعدم يدكرنا في كثير من جنباته بما نقع عليه في كتاب افلاطون الشهير « بارمنيدس Parménides ويطول بنا الحديث لو اردنا استعراض العديد من الشعراء الذين قام شعرهم على معنى فلسفي رائد فحدونا عن وحدة الكون ، نما فعل امثال « نيرفال Nerval و « بودلير » ، أو عن الشبيه والضد أو عن الحركة والسكون كما فعل « وردزورث » و « شيلي » أيضا .. ويطول بنا الموقف اكثر لو اردنا أن ندرس تلك الصلة الطريفه التي تقوم بين شاعر مثل « هولدرن » وبين فيلسوف مثل « هيجل Hegel وجل ما نريد ان نصل اليه من وراء هذا كله أن من الخطأ ان نردد الشنشنة القائلة ان الشاعر ميتافيزيقي لم يفلح ، او ان الميتافيزيقي شاعر لم يفلح .

والحق في هذا كله أن المعاني الفلسفية حظ مشترك في كثير من الاحيان بين الفيلسوف والشاعر ، وكثيرا ما يوغل الشاعر في أسلوب يقترب من أسلوب الفيلسوف ، ومع ذلك يظل الفارق قائما دوما وأبدا . فالشكل الذي يجسد به الشاعر فكرته مباين أبدا لما ندعوه بالمذهب الفلسفي . ويظل من صحيح الصحيح أن نقول مع الشاعر على لسان الميتافيزيقي :

ربة الشعر ، ربة القلب الكبير
لتنطلق اناشيدك
انني أصغي اليك ، وأنا الذي أتكلم

فالفارق قائم رغم كل شيء بين هذين الحظين من نقل معاني الحياة . واذا كان جوهر الشعر دوما جوهرا ميتافيزيقيا ، وكان جوهر الميتافيزيقي في كثير من الاحيان جوهرا شعريا ، فمن الحق بعد هذا أن الشعر ينقل معانيه حيه مختلطه بعيدة عن التحليل العقلي ، بينما لا تقوم الميتافيزيقى الا على أساس البحث العقلي المحلل ، بل على أساس البحث العلمي ، كما يريد ميتافيزيقيو اليوم .

أما اذا مضينا الى ميدان النثر ، فاننا واجدون أيضا مثل هذا التقاء ومثل هذا الفراق بين الادب والفلسفة . والشاهد عليهما ايضا ما نجده في القصة الحديثة وفي الادب المسرحي الحديث من منازع فلسفية صريحة تتصدى لطرح مشكلات الكون والوجود . وكثير من المؤلفات القصصية والمسرحية الحديثة يسودها فكرة فلسفية موجهة رائدة . هكذا نجد فكرتي « الأنا » و « الحرية » تسودان روايات « ستندال Stendhal ونجد الاشارة الى سر التاريخ وتفسيره على أنه انبثاق للمعنى والفكرة ضمن الحوادث الصارخة هي الفكرة الرائدة عند قصاص مثل بالزاك Balzac ونجد القول باشتمال الحاضر على الماضي وبحضور الزمن الماضي الضائع هو الموجه لاقاصيص « بروست Proust هذا اذا لم نوغل لنلتقي بالرواية المعاصرة حيث نجد أمثال « سارتر » «وغابرييل مارسيل» و «كافكا» و «مورغان» و«سيمون دي بوفوار » وكثير غيرهم ممن تسود التقليدية ، حين تأبى ان تكون مهمتها تفسير العالم واكتشاف أدبهم فكرة فلسفية رائدة . بل ان ظهور الفلسفة الوجودية الى جانب الادب الوجودي في عصرنا ، ليكاد يوحي بقران

مبتكر بين الفلسفة والادب ، بعد ان تغير كلا مفهوميهما في عرف هذا المذهب . فالفلسفة الوجودية تباين الفلسفات « شروط امكانه » ، وحين تجعل مهمتها صياغة تجربة حية مع العالم ، واقامة تماس مباشر معه سابق لكل فكرة عنه . وبذلك تقترب الشقة بين الادب والفلسفة اقترابا كبيرا ، عندما يصبح غرض كليهما استنطاق تجربة الانسان مع العالم . ففي مثل هذه الفلسفة الوجودية ، يتم الانطلاق من فكرة أساسية وهي أن العالم مخلوق بحيث لا يمكن التعبير عنه الا عن طريق « أقاصيص » . وما دام الامر كذلك فالقصة والمسرح لا بد أن يكونا مشبعين بالميتافيزياء ، ولو لم يستخدما أي لفظ فلسفي .

غير أن هذا الاقتراب الكبير بين جوهر الفلسفة وجوهر القصة لا ينفي في نظرنا أن تظل الفروق قائمة بينهما في الاسلوب ، كما رأيناها قائمة بين الفلسفة والشعر . ويظل من الصحيح دوما أن نقرر أن الادب ، ولاسيما القصة والمسرح ، هو التجسيد المشخص الحي للمعاني الفلسفية الثاوية في الوجود بينما الفلسفة تحليل ودراسة عقلية لمثل هذه التجربة المشخصة الحية . ونستطيع أن نقول بتعبير آخر ، ان الادب سابق على الفلسفة ، بمعنى أن ما يعرضه من المعاني مادة حية ينفها من الحياة نفسها ، في تعقدها وتشابكها ، ثم يأتي الفكر المجرد ، الفكر الفلسفي فيضعها موضع التحليل والبحث . ان ما يعرضه لنا الادب مثلا من ضروب الصراع القائمة في الحياة أشياء موجودة قبل أن نعبر عنها وقبل أن نحللها منطقيا ، على حد تعبير « غابرييل مارسيل » . فما يعرضه هو الحياة ، هو سر الحياة . ان الفلسفة والادب ، على حد قول « مارسيل » أيضا « منحدران مفترقان من ارتفاع واحد » . ومع ذلك نعود فنقول ان هذا التمييز يصدق على الفلسفة في جوهرها الخالص وعلى الادب في جوهره الخالص في حين أن بين هذا وذاك مراتب متداخلة وصورا تبتعد أو تقترب من هذين الجوهرين ، كما سبق أن بينا .

***

وتستبين لنا هذه العلاقة بين الادب والفلسفة من زاوية أخرى ، اذا نحن نظرنا في العوامل المكونة للتجربة الادبية . ولن نعاود ههنا مثل هذا البحث المكرور في بواعث الادب ومكونات الاديب . ولن ننتصر لمذهب دون آخر في تفسير الابداع الادبي . والذي نريد أن نقرره من وراء هذا أن العوامل التي تخلق الادب وتبدع التجربة الادبية ، سواء وضعنا الالهام على رأسها ، أو وضعنا تجربة الحياة وظروف العصر في أسس مقوماتها ، أو رجعنا فوق هذا وذاك الى العوامل اللاشعورية والى العقد النفسية خاصه ، تنتمي دوما وابدا الى اروومة واحدة قوامها الاتحاد مع تيار الحياة والانغماس في ما تنضح به من فلسفة . وسواء ذهبنا مع الفلاسفة في القول بأن التجربة الادبية اتحاد بين الطبيعه والذات بين الواقع والمطلق ، أو مضينا مع علماء النفس في رد الابداع الادبي والفني جملة الى الرغبات المكبوته والدوافع اللاشعوريه ، أو وافقنا أصحاب المنزع الاجتماعي فيما للحوادث الاجتماعية وظروف البيئة من دور كبير في هذا المجال ، يظل بين هذه العوامل جميعها اطار مشترك يضمها ، هو اطار التعاطف مع ما تشف عنه الطبيعة والحياة من معان وما توسوس به من أفكار .

والحق ان التجربة الانفعالية اسمى أنواع التجارب الانسانية . وهي في اعماقها تشمل ما قبلها وتعلو عليه . انها تشمل ما هو اجتماعي وما هو نفسي لتعلو فوقهما وتلفهما . والتركيب الكلي ، نعني النظرة الشاملة للكون والاشياء ، لا يكون الا في مستوى الانفعال البديعي . فالانفعال البديعي هو الذي ينقلنا الى مستوى المشاركة الروحية الحقة في آفاق الحياة العليا والغامضة . انه هو الذي ينقلنا الى المشاركة في عالم القيم العليا ، قيم الحب والخير والحق والجمال . ومن هنا كانت التجربة الادبية ، باعتبارها تجربة انفعالية من الطراز الاول ، وباعتبار قوامها المشاركة الوجدانية الانفعالية كما ذكرنا ، تجربة مترعة بكل مراتب الوجود الدنيا السابقة عليها ، من مراتب نفسية أو اجتماعية او طبيعية او غيرها . وهكذا نلفي من جديد التجربه الادبية مرتبة عليا في فهم الكون والاشياء ، وشكلا أمثل في تمثل فلسفة الحياة .

ان التجربة الادبية ، وسائر ألوان التجربة البديعية ، تجربة فردية مثلى ، وهي بسبب ذلك في الذروة بين تجارب الوجود . انها ترتبط بتجربة الوجود التي يقوم بها كل فرد ، وهي في أعماقها ما يكونه كل فرد لنفسه من نظرة كاملة الى الوجود . وبدهي أن أسمى أشكال الوجود الروحي هو هذا الوجود الذي يرقى فيه الفرد الى تكوين نظرته المتفردة الخاصة . غير أن هذا لا يعني ، كما قد يظن أن بلوغ التجربة الفردية الفذة يكون باستبعاد التجربة الاجتماعية ومناقضتها . والامر على عكس هذا تماما . فالتجربة الاجتماعية شرط لازم لكل تجربة فردية حرة ، وهي وسيلة الارتقاء الى مثل هذه التجربة . غير أن نمو التجربة الانسانية عندما يربو ويستمر ، لا بد أن يقود الى ما هو فوق المجتمع وان لم يكن نقيضه ، نعني الادراك الذاتي الخاص واللحن المتفرد والرنين الشخصي . ومثل هذا

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات التسع الاولى من الاداب تباع كما يلي :

			ل.ل
السنة الاولى	١٩٥٣	(مجلدة)	١٥٠
السنة الثانية	١٩٥٤	(بدون تجليد)	٤٠
السنة الثالثة	١٩٥٥	« «	«
السنة الرابعة	١٩٥٦	« «	«
السنة الخامسة	١٩٥٧	« «	«
السنة السادسة	١٩٥٨	« «	«
السنة السابعة	١٩٥٩	« «	«
السنة الثامنة	١٩٦٠	« «	«
السنة التاسعة	١٩٦١	« «	«

اللحن الذاتي هو في أعماقه التجربة الانفعالية التي هي أساس الاحساس البديعي وأساس الخلق الادبي .

ومن خلال هذا الافق نفهم معنى الرابطة التي تربط الاديب بمجتمعه . فالاديب ابن المجتمع ، منه اغتذى وبه عرف تراث الانسان بل عرف ذاته ومعنى وجوده . غير أنه يعرف أن يرقى فوق المجتمع ليكون تجربته الشخصية واطاره الفريد . ومن هنا كان الاديب في آن واحد ملتزما حرا ، وكان الالتزام هو الحرية ، وكانت الحرية تعني الالتزام في نهاية الامر . فالاديب الحق لا بد أن يكون ابن مجتمعه ولا بد ان يتكون خلاله وان يمتص روحه . ولكنه لا يظل حبيس هذا المجتمع وحبيس قيمه ، بل يملك من الاصالة والنظرة الشخصية ما يجعله يرقى فوق المجتمع مصححا مقوما للاشياء . انه أبدا رقيب المجتمع وسيده . والالتزام في الادب يأخذ معناه من خلال هذا الافق وحده . انه يعني امتصاص الاديب للتجربة الاجتماعية امتصاصا يجعله قادرا على التحرر منها وتوجيهها . فهو في المجتمع ومنه لا محالة . غير انه لا يكون أديبا حقا اذا لم يملك من النظرة الشخصية ما يمكنه من الاطلال على المجتمع اطلالة نقد وتمحيص وتوجيه .

ولهذا وجدنا الالتزام يحمل معنيين متناقضين ، هما في نظرنا سبب الخلاف الوهمي حول هذه المسألة . فالالتزام كثيرا ما يكون بتبني قيم وأهداف سائدة في المجتمع غالية عليه . غير أنه كثيرا ما يكون أيضا بالخروج على قيم وأهداف اجتماعية غدت بالية ، وأصبحت نظرة الاديب البديعية العليا تنكرها وتتنكر لها . أو لم يشعر كاتب كبير مثل « بوشكين » أن الالتزام الحق يدعوه ، في عصر نقولا الاول ، الى المناداة بتحرر الفنان من الدعوة الى أهداف المجتمع ؟ ذلك أن مثل هذه الدعوة في ذلك العهد كانت تعني تأييد الظلم والفساد . ولهذا أوى مثل بوشكين الى محراب الفن للفن ، ووجد فيه قيمة انسانية أعلى .

ومثل هذا المذهب ذهب اليه «غوتييه» والرومانتيكيون الفرنسيون من بعده ، اذ كان وضع الادب في خدمة المجتمع اذ ذاك لا يعني سوى خدمة البورجوازية والتنكر للجماهير الشعبية . ومن هنا حق لمثل الكاتب الروسي « بليخانوف » أن يقرر أن نزعة « الفن للفن » تولد وتشتد حينما يقوم بين الفنان وبين الوسط الاجتماعي خلاف مستعص .

ومعنى هذا أن الالتزام لا يعني دوما أن يكون الادب في خدمة المجتمع ، وانما يعني أن يكون في خدمه المبادىء المثالية التي يؤمن بها الاديب حين علا على المجتمع وكون تجربته الشخصية وقيمه الروحية الذاتية ، ولا يزول اللبس في مسألة الالتزام ولا يزول كثير من الصراع حولها الا اذا أدركنا هذه الحقيقة ، وهي أن الالتزام قد يكون التزاما بأهداف المجتمع ومثله وقد يكون خروجا على هذه الاهداف وتلك المثل . والمعيار الحق للالتزام هو تجاوب الاديب مع نظرته الفردية الحرة ، التي تتضمن في ثناياها حتما تجربة مجتمعه ولا يمكن أن تكون بدونها . فعن طريق تمثل تجربة المجتمع وثقافته وتراثه رقى الاديب الى تجربته الشخصية الفذة . غير أن هذه التجربة الشخصية وضعت تجربة المجتمع ضمن اطار جديد ، هو اطار القيم الانسانية المثلى التي بلغها الاديب بجهده ومعاناته . والتزام هذا الاطار الجديد هو الالتزام الحق لدى الاديب .

ان نابليون حين كان يدعو الى جعل الادب في خدمة المجتمع ، وحين كان يحمل على نظرية « الفن للفن » ويعدها اسوأ مخترعات الايديولوجيين المعنيين ، لم يكن يصدر في ذلك عن نزعة التزام كالتي يريدها الاديب ، بل كان يدعو الى ما يناقض الالتزام الحق تماما .

وبتعبير آخر ، ان الدعوة الى فن يخدم المجتمع دعوة يمكن أن تساير الالتزام الحق ويمكن أن تكون ضده ، وهي نزعة كثيرا ما تتلاءم مع الروح المحافظة أكثر من تلاؤمها مع الروح الثورية . والتعبير الصحيح في هذا المجال هو أن ننادي بالتزام الاديب لتجربته الشخصية ، تلك التجربة التي تتضمن القيم المثلى التي رقى اليها والتي ينظر من خلالها الى حياة مجتمعه .

وهكذا ندرك أعمق الادراك كيف تلتقي التجربة الفردية الحرة بالتجربة الاجتماعية الخصيب لدى الاديب الحق .

ونفهم معنى قولنا ان التجربة الادبية تجربة فردية من الطراز الاول ، دون أن يحمل هذا القول معنى انكار المجتمع أو التنكر له .

وأخيرا ، اذا كان الادب هذه التجربة الانفعالية المثلى التي تنقل الفرد الى أفق جمالي يجعله يتعاطف مع أسمى القيم الروحية في الحياة ويدرك أجمل معانيها ، فهل نظل في حاجة الى تقرير ما هو بدهي والى أن نعود فنقول ان الادب تعبير سام عن تيار الحياه واتصال بمعانيها وامتياح من فاسفتها المستسرة ؟

ان الاديب الحق ربيب الحياة الفيلسوفة . انه جزء من تيارها ، قبس من نورها ، مفصح عن سرها الذي لا ينضب .

دمشق — **عبدالله عبد الدائم**

شعر

من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي

دار الاداب

بيروت — ص.ب ٤١٢٣